## (٣)

## طهارة القلوب

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ قَلْبِي بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا، كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ، وَالْمَأْثَمِ، وَالْمَغْرَمِ**». متَّفق عليه(١).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو، فَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي: بِالثَّلْجِ، وَالْبَرَدِ، وَالْمَاءِ الْبَارِدِ. اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا، كَمَا طَهَّرْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ ذُنُوبِي، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**». رواه مسلم، وأحمد واللَّفظ له(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلاَةِ سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ -بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي- أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «**أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا**

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٧٧)، ومسلم (٥٨٩).

(٢) رواه مسلم (٤٧٦)، أحمد (١٩٤٠٢).

**بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ، كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ. اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ: بِالثَّلْجِ، وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ»**. متَّفق عليه(١).

هذه دعوات عظيمة، مأثورة عَنِ النَّبِيِّ ﷺ في الصَّلاة وخارجها، تكرَّر فيها سؤالُ الله: تطهيرَ القلوب وتنقيتها، وغسلها مِنَ الخطايا بالماء والثَّلج والبرد. ممَّا يدلُّ على عظيم العناية بطهارة القلوب الطَّهارة التَّامَّة، كما يُنَقَّى الثَّوب الأبيض مِنَ الدَّنس.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسألت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النَّبِيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»، كيف يطهِّر الخطايا بذلك؟ وما فائدة التَّخصيص بذلك؟ وقوله -في لفظ آخر-: «**وَالْمَاء الْبَارِد**»، والحارُّ أبلغ في الإنقاء.

فقال: الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفًا؛ فيرتخى القلب وتضطرم فيه نار الشَّهوة وتنجِّسه، فإنَّ الخطايا والذُّنوب له بمنزلة الحطب الَّذِي يمُدُّ النَّار ويوقدها، ولهذا كُلَّما كثرت الخطايا؛ اشتدَّت نارُ القلب وضعفُهُ. والماء يغسل الخبث ويطفىء النَّار؛ فإن كان باردًا أورث الجسم صلابة وقوَّة، فإن كان معه ثلج وبرد؛ كان أقوى في التَّبريد، وصلابة الجسم،

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

وشدَّته؛ فكان أذهب لأثر الخطايا»[(١)].

والله عَزَّوَجَلَّ دعا عباده إلى أن يُطَهِّروا قلوبهم ويُنَقُّوها من عللها وأدوائها؛ لتكون قلوبًا طاهرةً نقيَّةً، وقد دلَّ القرآن والسُّنَّة على أهمِّيَّة تطهير القلوب وتنقيتها، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر:١-٤].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجمهور المُفَسِّرين مِنَ السَّلف، ومَن بعدهم على أنَّ المراد بالثِّياب -ههنا-: القلب. والمراد بالطَّهارة: إصلاح الأعمال، والأخلاق»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة:٤١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلَّت الآية: على أنَّ طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى، وأنَّه سبحانه لمَّا لم يرد أن يُطَهِّر قلوب القائلين بالباطل المُحَرِّفين للحَقِّ؛ لم يحصل لها الطَّهارة...

ودلَّت الآية: على أنَّ مَن لم يُطَهِّر الله قلبه؛ فلا بُدَّ أن يناله الخزي في الدُّنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه؛ ولهذا حرَّم الله

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ٩٧).

(٢) إغاثة اللَّهفان (١/ ٨٦).

سبحانه الجنَّة على مَن في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلَّا بعد طيبه وطهره؛ فإنَّها دار الطَّيِّبين، ولهذا يقال لهم: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزُّمر: ٧٣]، أي: ادخلوها بسبب طيبكم، والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل:٣٢]»(١).

وإذا كان مطلوبًا مِنَ العبد: العمل على إصلاح قلبه وتطهيره وتنقيته من أدوائه وأسقامه؛ فإنَّ عليه أن يعرف: حقيقة مرض القلب، وكيف يمرض؟ وبِمَ يمرض؟ وأنواع مرضه؟ لتكون هذه المعرفة معينًا له على إصلاحه وتطهيره، وللإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ تفاصيل نافعة في هذا الباب حرَّرها في كتابه إغاثة اللَّهفان من مصائد الشَّيطان.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر حقيقة مرض القلب، قال الله تعالى عَنِ المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]. وقال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج:٥٣]. وقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]. أمرهُنَّ أن لا يَلِنَّ في كلامهِنَّ... فيطمع الَّذِي في قلبه مرض الشَّهوة، وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ٩٤ - ٩٥).

فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر:١].

أخبر الله سبحانه عَنِ الحكمة الَّتِي جعل لأجلها عِدَّة الملائكة المُوَكَّلين بالنَّار تسعة عشر، **فذكر سبحانه خمس حكم:**

* فتنةَ الكافرين؛ فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم.

* وقوَّةَ يقين أهل الكتاب؛ فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك، لما عندهم عن أنبيائهم -من غير تلقٍّ من رسول الله Γ عنهم- فتقوم الحُجَّة على معاندهم، وينقاد للإيمان مَن يرد الله أن يهديه.

* وزيادةَ إيمان الَّذِين آمنوا؛ بكمال تصديقهم بذلك، والإقرار به.

* وانتفاءَ الرَّيب عن أهل الكتاب؛ لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

* وحيرةَ الكافر ومَن في قلبه مرض، وعمى قلبه عَنِ المراد بذلك، فيقول: ماذا أراد الله بهذا مثلًا؟

**وهذا حال القلوب عند ورود الحَقِّ المُنَزَّل عليها:**

* قلبٌ يفتتن به كفرًا وجحودًا.

* وقلبٌ يزداد به إيمانًا وتصديقًا.

* وقلبٌ يتيقَّنه؛ فتقوم عليه به الحُجَّة.

* وقلبٌ يوجب له حيرة وعمًى؛ فلا يدري ما يراد به»[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]. فهو شفاء لما في الصُّدور من مرض الجهل والغَيِّ؛ فإنَّ الجهلَ مرضٌ شفاؤه العلم والهدى، والغيَّ مرضٌ شفاؤه الرُّشد. وقد نزَّه الله سبحانه نبيَّه عن هذين الدَّاءين، فقال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النَّجم:١-٣]. ووصف رسولُه ﷺ خلفاءَه بضدِّهما، فقال: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**»[(٢)]، وجعل كلامه سبحانه موعظة للنَّاس عامَّة، وهدًى ورحمة لمَن آمن به خاصَّة، وشفاء تامًّا لما في الصُّدور؛ فمَنِ استشفى به صحَّ وبرىء من مرضه»[(٣)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا عُرِفَ هذا؛ **فالقلب محتاج:**

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ١٩ - ٢١).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والتِّرمذيُّ (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٣) إغاثة اللَّهفان (١/ ٢١ - ٢٢).

* إلى ما يحفظ عليه قُوَّته، وهو: الإيمان، وأوراد الطَّاعات.

* وإلى حِمْيَة عَنِ المُؤذي الضَّارِّ، وذلك باجتناب: الآثام، والمعاصي، وأنواع المخالفات.

* وإلى استفراغه من كُلِّ مادَّة فاسدة تعرض له، وذلك بالتَّوبة النَّصوح، واستغفار غافر الخطيئات.

ومرضه هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوُّره للحقِّ، وإرادته له؛ فلا يرى الحقَّ حقًّا، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له. وتفسد به إرادته له؛ فيبغض الحقَّ النَّافع، أو يُحِبُّ الباطل الضَّارَّ، أو يجتمعان له وهو الغالب؛ **ولهذا يُفَسَّر المرض الَّذِي يعرض له:**

- تارة بالشَّكِّ والرَّيب، كما قال مجاهد وقتادة في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:١٠]. أي: شكٌّ.

- وتارةً بشهوة الزِّنا، كما فُسِّر به قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾.

**فالأوَّل** مرض الشُّبهة، **والثَّاني** مرض الشَّهوة.

والصِّحَّة تحفظ بالمثل والشِّبه، والمرضُ يدفع بالضِّدِّ والخلاف، وهو يقوى بمثل سببه، ويزول بضدِّه. والصِّحَّة تحفظ بمثل سببها، وتضعف أو

تزول بضدِّه»[(١)].

**و«مرض القلب نوعان:**

**نوع لا يتألَّم به صاحبه في الحال:** وهو النَّوع المُتَقدِّم: كمرض الجهل، ومرض الشُّبهات والشُّكوك، ومرض الشَّهوات. وهذا النَّوع هو أعظم النَّوعين ألمًا، ولكن لفساد القلب لا يحسُّ بالألم؛ ولأنَّ سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وإلَّا فألمه حاضر فيه حاصل له، وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضدِّه، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما، وعلاجه إلى الرُّسل وأتباعهم؛ فهم أطبَّاء هذا المرض.

**والنَّوع الثَّاني:** مرض مؤلم له في الحال: كالهَمِّ، والغَمِّ، والغيظ. وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعيَّة: كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضادُّ تلك الأسباب، وما يدفع موجبها مع قيامها. وهذا كما أنَّ القلب قد يتألَّم بما يتألَّم به البدن، ويشقى بما يشقى به البدن؛ فكذلك البدن يتألَّم كثيرًا بما يتألَّم به القلب، ويشقيه ما يشقيه.

فأمراض القلب الَّتِي تزول بالأدوية الطَّبيعيَّة؛ من جنس أمراض البدن، وهذه قد لا توجب وحدها شقاءه، وعذابه بعد الموت.

وأمَّا أمراضه الَّتِي لا تزول إلَّا بالأدوية الإيمانيَّة النَّبويَّة؛ فهي الَّتِي توجب

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ٢٣ - ٢٤).

له الشَّقاء، والعذاب الدَّائم -إن لم يتداركها بأدويتها المضادَّة لها- فإذا استعمل تلك الأدوية؛ حصل له الشِّفاء...

فالغيظ يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه...

**وكذلك:** الجهل مرض يؤلم القلب؛ فمِنَ النَّاس مَن يداويه بعلوم لا تنفع، ويعتقد أنَّه قد صحَّ من مرضه بتلك العلوم، وهي في الحقيقة إنَّما تزيده مرضًا إلى مرضه، لكن اشتغل القلب بها عن إدراك الألم الكامن فيه؛ بسبب جهله بالعلوم النَّافعة، الَّتِي هي شرط في صحَّته وبرئه، قال النَّبِيُّ ﷺ في الَّذِين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتي بفتواهم: «**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءَ الْعِي السُّؤَالُ**»(١). فجعل الجهل مرضًا، وشفاءَه سؤال أهل العلم.

**وكذلك:** الشَّاكُّ في الشَّيء المرتاب فيه؛ يتألَّم قلبه، حتَّى يحصل له العلم واليقين...

**وهو كذلك:** يضيق بالجهل والضَّلال عن طريق رشده وينشرح بالهدى والعلم، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام:١٢٥].

**والمقصود:** أنَّ من أمراض القلوب: ما يزول بالأدوية الطَّبيعيَّة، ومنها ما

---

(١) رواه أبو داود (٣٣٦)، وابن ماجه (٥٧٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

لا يزول إلَّا بالأدوية الشَّرعيَّة الإيمانيَّة. والقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء. وذلك أعظم ممَّا للبدن»[(١)].

و«القرآن متضمِّن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

**وقد تقدَّم:** أنَّ جماع أمراض القلب، هي: أمراض الشُّبهات، والشَّهوات. والقرآن شفاء للنَّوعين؛ ففيه مِنَ البيِّنات والبراهين القطعيَّة ما يُبَيِّن الحقَّ مِنَ الباطل، فتزول أمراض الشُّبه المفسدة للعلم والتَّصوُّر والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وليس -تحت أديم السَّماء- كتابٌ متضمِّن للبراهين والآيات على المطالب العالية: مِنَ التَّوحيد، وإثبات الصِّفات، وإثبات المعاد، والنُّبوَّات، وردِّ النِّحَل الباطلة، والآراء الفاسدة. مثلَ القرآن؛ فإنَّه كفيل بذلك كلِّه، متضمِّن له على أتمِّ الوجوه، وأحسنها، وأقربها إلى العقول، وأفصحها بيانًا. فهو الشِّفاء على الحقيقة من أدواء الشُّبه والشُّكوك، ولكن ذلك موقوف على: فهمه، ومعرفة المراد منه. فمَن رزقه الله تعالى ذلك؛ أبصر الحقَّ

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ٢٦ - ٢٨).

والباطل عيانًا بقلبه...

وأمَّا شفاؤه لمرض الشَّهوات؛ فذلك بما فيه مِنَ: الحكمة، والموعظة الحسنة -بالتَّرغيب والتَّرهيب، والتَّزهيد في الدُّنيا، والتَّرغيب في الآخرة- والأمثال، والقصص -الَّتِي فيها أنواع العبر والاستبصار-.

فيرغب القلب السَّليم -إذا أبصر ذلك- فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عمَّا يضرُّه؛ فيصير القلب: محبًّا للرُّشد، مبغضًا للغَيِّ»[1].

والمعافى مَن عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصَّبر عن كُلِّ معصية، فرفل في أثواب العافية. أصلح الله قلوبًا أجمعين.

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ٧٠ - ٧٢).